المسلمون أمس واليوم

للاستاذ احمد امين

فى نحو ثلاثة وعشرين عاما استطاع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما منح من قوة العقيدة . وصدق العزيمة . وبعد النظر وتأييد الله أن يحول العرب من جماعات مختلفة اللغـــة ، مختلفة الدين ، مختلفة الرأى ، مختلفة الاهواء ، تشعر بالضعة اذا قارنت نفسها بمن حولها ، وبالذلة اذا رأت من فى جوارها ، لا يفكر الفرد فيها الا فى نفسه ، فان اتسع أفقه ففى قبيلته ، فان فكر فى قبيلة أخرى ففى الانتقام والأخذ بالثار ، وشن الغارة للسلب والنهب — الى أمة واحدة ، متحدة اللغة ، متحدة الدين ، متحدة الرأى ، يشعر الفرد فيها أنه من أمة أعزها الله بالاسلام . وفضلها به على الانام . وجعلهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . وليس ذلك بالكثير فى تاريخ الأمم .

فان مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتعد اصلاحه جزيرة العرب ، فقد أعد أمة لاصلاح غيرها ، ولســـيادة الناس خير اعداد — حتى اذا وجهها قادتها نحو الفتح ، أتوا بما حير علماء السياسة والاجتماع والتاريخ الى اليوم — بسطوا سلطانهم على جزء كبير من العالم فى أقل من عشر سنين ، ولم يكن فتحهم تخريبا وتدميرا ، انما كان فتحا منظما أحكمت قواعده وأصوله — واستمروا ينتقلون من فتح الى فتح ، ومن ظفر الى ظفر ، مما يجعل الباحث يقتنع بأن نجاحهم لم يكن حظا أتيح لهم ، ولا مصادفة وقعوا عليها — انما كان نتيجة مبادىء صحيحة اعتنقوها ، ونفوس قوية ضمت صدورهم عليها — ومع ما عرض لهم من خلاف فيما بينهم كان من طبيعته أن يودى بأمثالهم من حروب داخلية ومنازعات سياسية وخلافات دينية ، تغلبوا على كل ذلك ، ولم يمنعهم من الظفر بعدوهم واستمرارهم فى فتوحهم .

ثم هم ساهموا فى كل شأن من شؤون المدنية ، إن نظرت الى الدين فقد دعوا الى دينهم فدخل الناس فيه أفواجا فى هدوء من غير عنف ، ولم يمض قرنان على فتحهم حتى كان أكثر البلاد المفتوحة على دينهم ، ثم هو لا يزال ينتشر الى اليوم مع انعـــدام الدعاة ، وعـدم حماية الدعوة ، وان نظرت الى اللغة رأيتهم هيئوا لغتهم لكل جديد ووسعوها — وهى البـــدوية الأصل والمنشأ . حتى أحاطت بكل مرافق المدنية إذ ذاك ، وحتى زاحمت الفارسية فى فارس ، والرومانية فى الشام والقبطية فى مصر ، وسارت مع الدين جنبا لجنب ، كلما ظفر الدين ظفرت اللغة ، وكسبت لغتهم قادة الفكر فى كل هذه الأمم المفتوحة . فأصبحوا يمنحونها خير أفكارهم وأفكار أممهم ، وظلت اللغة العربية تسود حتى نسى كثير من الامم لغتهم الاصلية ، وأحلوا محلها العربية ، ولولم يعتنقوا الاسلام

وان نظرت الى النظم والتشريع فكذلك ، قد أقام المشرفون أنفسهم وكانوا حيث حلوا مرنين يقفون موقف المتفهم للموجود من نظم وقوانين ثم يقرون ما لم يتعارض وأصول دينهم ، ويغيرون ما تعارض ، ووقف الفقهاء فى كل قطر يوسعون مذاهبهم حسب الحاجة ، وحسب الأقليم الذى حلوه ، وخلفوا من كل ذلك قوانين لا تزال الى اليوم محل اعجاب المنصفين من المشرعين

وان التفت الى العلم رأيت أنهم فى كل فرع من فروع العلم أخذوا بحظ وافر ، لم يمنعهم دينهم أن يأخذوا عن وثنى اليونان فلسفتهم ، ولا عن النساطرة طبهم ، ولا عن اليهود ما يروون من أخبار أنبيائهم وعلمائهم ، وأبلوا فى العلم بلاء لايقل عن بلائهم فى الحرب ، فحيث حلوا رأيت علما كثيرا وجدا عجيبا ؛ ثم خلفوا من كل ذلك ثروة فيها غاية ماوصل اليه العلم لعهدهم . فهموا ما كان من علم قبلهم وتداولوه بالشرح والنقد وضموا اليه ماأوحته نظرات دينهم من علوم اسلامية ، ومذاهب دينية ، وزادوا فى ثروة من قبلهم بما بذلوا من جهد وأنفقوا من مال ونفس

فلئن لم يكونوا سادة العالم فقد كانوا سادة فى العالم ، وان لم يكونوا رأسه المفكر فقد كانوا رأسا من الرءوس ، لا عبيدا ولا أذنابا ، ووقفوا فى بعض أيام تاريخهم من العالم موقف المعلم ، يرحل من اراد العلم من الاوربيين اليهم ، وينقلون الى اللاتينية كتبهم ، ويدرسون فى جامعاتهم علمهم — وفى السياسة العالمية وقفوا موقف الموازن ، يسمع لقولهم ويحسب حسابهم ، وتعقد المعاهـــدات المحترمة معهم .

* * *

ثم دار الزمن دورته وأصبح سادة الأمس عبيد اليوم ورءوس الأمس أذناب اليوم ، وشباب الأمس هرم اليوم ، وقضى على حضارتهم

ماقضى على حضارة اليونان والرومان، والآشوريين والبابليين، وقدماء المصريين، الا فرقا واحداً وهو أن حامل لواء الحضارة الاسلامية لا يزال حيا وان كان شيخا فانيا ، وان الشيخ انلم يصب بالعقم فقد يلد طفلا يمر بأدوار الحياة ومنها الشباب ، وان الام انلم تمت فهي أيضا فقد يكون للاسلام فجر وضحى ، وعصر وغروب ، ولكن لا يلبث الليل حتى ينجلي عن صبح آخر فيه كل صفات الصباح ، من نور وضياء ، و اشراق يدفع للحركة ، ونسيم يبعث الحياة

وبالفعل يظهر أن هذا الشيخ الفانى قد مات أو كاد ، وأن الله فالق الاصباح ومخرج الحي من الميت لم يصبه بالعقم ، ووهبه ماوهب زكريا «إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . و انى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا »

ولكن إن ورث « يحيى » من زكريا علما وحكمة فانى أخشى أن يرث « يحيانا » تركة قد اثقلت بالديون وأفعمت بالمغارم ، فهل من سبيل الى أن يرث من آبائه الابعدين لا من آبائه الاقربين ؟ يحدثنا علماء الوراثة بأن ذلك جائز فى قوانينهم ، وأن بعض الابناء يرث من جده الأبعد لا من أبيه الأقرب ، ان كان ذلك كذلك فخير له ، فأن أباه أشعث أغبر ، لوحته الهموم ، وأحنت ظهره الاحداث ، أما جده البعيد فجميل المحيا ، مشرق الجبين ، صارعه الدهر ، فصرع الدهر ، وأرادت أن تنال منه الاحداث فنال منها ، ولكن أنى لها ذلك ، ومربوه من جنس أبيه ، فان لم تفسده الوراثة أفسدته البيئة وأفسده المربى وأفسده الموالى من ورائه يكيدون له ، ويضعون الخطط تلو الخطط لاغتياله . لا يكون ذلك حتى يرزق «يحيى» بالمثل الصالح ، والمربى الصالح ، يفتح عينيه ليرى ماحوله ، ويضع له البرامج ليعده أن يكون سيداً مع السادة ورأسا بجانب الرءوس ، يبنى صرح المدنية مع بناته ، ويشيد العالم مع مشيديه ، فأن كان العالم لا يسع الا مدنية واحدة شارك فيها ، وإن كان يسع مدنيتين فاكثر ، أسس هو مدنية تتفق وروحه ، وعقليته ونفسيته ، ودينه وخصائصه .

***

من نحو خمسة قرون فقد المسلمون مركزهم العالمى ، وأصبحوا حيث حلوا عنوان الذل والعبودية ، وحلفاء الفقر والمسكنة ، ولم يكن تأخرهم راجعا الى بيئتهم كما يذهب بعض الباحثين ، فهم يسكنون بيئات تختلف حرارة وبرودة ، وتختلف خصبا وجدبا ، وتختلف جفافا ورطوبة ، وهم مع ذلك فى مستوى واحد من الضعة والتأخر ، على أن الأمر لو كان يرجع الى البيئة ماتداول عز وبؤس ، ونعيم وشقاء ، وسيادة الأشراف وصعلكة العبيد ، ولكانوا على حال واحد أبداً ، لأن البيئة تلازمهم أبداً — كما أن الأمر لا يرجع الى مايجرى فى عروقهم من دم ، فدمهم الذى يجرى فيهم اليوم هو من نوع الدم الذى كان يجرى فى عروقهم أمس ، وقد بطلت نظرية أن الله اختار من عباده جميعا شعبا واحدا عهد اليه تنظيم العالم وسيادته هو الشعب التيوتونى أو الشعب الآرى ، فليس من أمة الا وهى خليط من دماء مختلفة ولو كان كذلك لما عزوا وذلوا ، وعلوا وسفلوا ، وليس أمر المسلمين كذلك يرجع الى دينهم فدينهم قديما كان هو سبب سعادتهم وهو الذى انتشلهم من بؤس ، وأغرهم من ذل — والدين متى كان صالحا فى أسسه كالاسلام كان باعثا على الاصلاح لا الفساد ، وعلى النهوض لا الانحطاط ، انما هو كشكل دين يختلف باختلاف العين التى تنظر اليه ، فان صلحت العين صلح ماتنظر اليه ، وان ساءت ساء ، بل قد رأينا فى تاريخ الامم عينا صحيحة ودينا مريضا استطاعت العين لصحتها أن تصلح منظره وتجمل شكله

على انى لا أرى أن المسلمين تأخروا وانحطوا بالمعنى الحرفى الذى يفهم من الكلمة أعنى الرجوع إلى الوراء ، بل كل ما فى الامر أنهم وقفوا حيث كانوا من خمسة قرون ، وغيرهم سائرون ، وناموا وغيرهم أيقاظ ، فلما بدأوا ينتبهون رأوا السنة بعيدة واللحاق يتطلب عزما قويا وجهدا بالغا

مظاهر هذا الوقوف وإن شئت فسمه الركود متجلية فى كل مرفق من مرافق الحياة — ففى اللغة وهى أداة الثقافة ، وآلة العلم ووسيلة الرقى العقلى — وقفنا حيث انتهى الامر بالدولة العباسية ، ولم نساير الزمن ولم نخط معه خطواته ، تغير وجه الحياة ، واخترعت ألوف الآلات ، ومعاجم لغتنا — كما هى — لا تعترف الا بما كان ، وتهمل ماهو كائن وما سيكون ، فلا هى توسعت فى مدلول الكلمات العربية ووضعت منها أسماء للجديد ، ولا هى سمحت بالكلمات الاجنبية أن تدخل من غير تعديل أو بتعديل ، والخلاف محتدم ، والنزاع قائم ، ومركزنا كما هو لم نتقدم فيه شبرا — مع أنا واجهنا هذا الامر منذ احتكاكنا بالمدنية الحديثة ، وحرنا فى تصرفاتنا حينا

تدرس كثيرا من المواد فى مدارسنا بلغة أجنبية وحينا تأخذنا العزة القومية فنحولها الى العربية ، والنقص كما هو والموقف كما هو

وفى التشريع تغير العالم فى معاملاته ، فانتجت المدنية الحديثة أنواعا من المعاملات عديدة ، وأنواعا من الجرائم جديدة ، ونظما فى الحكم والقضاء ، فابى رجالنا الا أن يقفوا حيث هم ، أبوا أن يفتحوا أعينهم لأنواع الشركات الا ما نص عليه فى الكتب القديمة من شركة مفاوضة ووجوه وعنان ، وأبوا أن ينظروا الى نظام الجارك الا ما ورد فى كتب الفقه فى باب العاشر ، وأبوا أن ينظروا فى جرائم الكيوف والاختلاس والتزوير الا ما جاء فى باب التعزير فكان من الزمن أن تركهم فيما هم فيه ، وسلب من يدهم أوسع أبواب التشريع ، وهى ما يتعلق بالمسائل المدنية والعقوبات واستمد من قانون نابليون اذ أبى ، بالعلماء أن يمدوه بالفقه اولم يترك فى يدهم الا الأحوال الشخصية الى حين

وكان موقفنا فى الاخلاق موقفنا فى اللغة والتشريع ، فالمدنية الحديثة كان لها من الاثر ما غير قيم الاخلاق ، وقلب أوضاعها وطبعها بطابع جديد ، ذلك أن أكبر أسس المدنية الحديثة وأهم أركانها الصناعة — ومن أجل هذا قومت الاخلاق من جديد على أساس الصناعة ، ورتبت قائمة الاخلاق ترتيبا يتفق والصناعة ، فخير الاخلاق النظام ، والنظافة ، والصدق فى المعاملة ، والمحافظة على الزمن ، والاقتصاد ، وما إلى ذلك ، وجعلت هذه الصفات فى المنزلة الاولى ، ووضع للعمال نظم لحمايتهم وترقية شؤونهم من نقابات وجمعيات ، وقلبت القائمة التى وضعت فى القرون الوسطى رأسا على عقب ، فالحياء والتواضع والسماحة ونحوها قل أن تعد فضائل ، واذا سمح بعدّها فى ذيل القائمة لانها لاتتناسب مع أخلاق القوة وأخلاق الصناعة ، فليس خير الصناع اشدهم حياء وأكثرهم تواضعا ، ولكن خيرهم أقواهم وأمهرهم ، وأحفظهم على نظام ، وأشدهم مراعاة لمواعيدهكذا — وجاء العلم يخدم هذا النظر لانه رقى الصناعات رقيا عظما بفضل ما يقدمه لها كل يوم من مكتشف جديد ، وبجانب هذا تحكم العلم فى تقويم الأخلاق . فغير الانظار القديمة وجعل المقياس سعادة الناس ورفاهتهم فى الحياة الدنيا ، ولم يعبأ بالتقدير المأثور عن السلف ، فنظر من جديد الى الموسيقى والالعاب وسائر الفنون ، وحكم بالحسن على ما كان يحكم عليه من قبل بالقبح ، وعد كثيرا مما كان قبل اثما وحراما وجريمة محمدة وخيرا وفضيلة ، ورأى أن ما فى حياة القرون الوسطى من رهبنة واعتكاف فى الاديرة والتكايا ونحو ذلك ، عيشة كسل وخمول لاتتفق وخير الناس ، فمن لم يعمل لا يأكل ، جرى كل هذا والمسلمون حائرون بين تقاليدهم القديمة وما تقدمه المدنية الحديثة من نظر جديد — والزمن لا ينتظرهم فى حل الاشكال واختيار أحد الطريقين ، فلما ترددوا جرفهم طوعا أو كرها من غير أن ينظرهم حتى يبتوا فيما يتفق وأخلاق المدنية الحديثة مع تقاليدهم ودينهم وتاريخهم ومالا يتفق .

ويطول بنا القول لو عددنا كل مرفق من مرافق الحياة وأبنا ما أصابه من ركود فنجتزىء بما ذكرنا من أمثلة للدلالة على باقيها .

* * *

ثارت أوربا فى التاريخ الحديث ثورات سياسية وثورات صناعية ، كان من نتائجها تغيرها تغيرا كبيرا فى القرن التاسع عشر فمن الناحية السياسة حلت الديمقراطية محل الارستقراطية بما يتبع ذلك من تغير فى النظم والتشريع ، ومن الناحية الصناعية حلت المصانع الكبيرة والشركات ، والسكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات والكهرباء محل المظاهر الساذجة من صناعات يدوية وحمل على الخيل والبغال ، واستنارة بالشمع والزيوت ، وما الى ذلك وهذا التغير السياسى والصناعى هو مانسميه بالمدنية الحديثة . وتبع هذا التغير الداخلى فى أوربا ، تغير آخر خارجى ، فقد اتجهت أفكار قادة الرأى فيهم الى غزو آسيا وافريقيا وكان الباعث لها على ذلك جملة أمور ، أولها اقتصادى وهى أن تجد لها فى الشرق أسواقا لصناعاتها التى ذكرنا ولتجد لها فى الشرق مواد أولية لتغذية صناعتها ، وثانيها وطنى ، وهو أن كل أمة من امم أوروبا فشت فيها النزعة الوطنية وامتلأت نفوس أهلها حمية ، ودفعها ذلك لأن تتطلب كل أمة قوة المظهر داخلا وخارجا ، ومن أهم ذلك التوسع فى الاستعمار وبسط النفوذ ، والفخر بلون الخرائط — وثالثها — وهو أقل من الاولين شأنا الدافع الدينى فقد دفع قوما من اوروبا لنشر الدعوة المسيحية فى البلاد الاسلامية واستعانوا بالسلطة على حمايتهم

على كل حال — حمل الأوروبيون الى آسيا وأفريقيا مدنيتهم مع فتحهم ، وكان لابد لهم أن ينظموا الحال فيهما بما يتفق والنظام السائد عندهم فى التشريع لابد أن تسود المبادىء القانونية السائدة فى أوربا حتى تسهل التجارة ويأمنوا على معاملتهم للشرقيين ، ولابد من انتشار المدنية الحديثة بآلاتها وأدواتها حتى تروج فى الشرق البضائع الأوربية ، ولا بد أن يتعلم طائفة من المفتوحين على النمط الاوروبى

الحديث ، وأن يكونوا هم المتولين المناصب الكبيرة حتى يمكن التفاهم معهم فى تسيير الشؤون ، وهكذا كان من أثر انتشار هذه المدنية بين المسلمين نتائج كثيرة أهمها فيما يظهر لى أمران - الاول - اختلال التوازن بين الأمم الشرقية عامة والامم الاسلامية خاصة ، وأكبر ما تمنى به أمة اختلال توازنها ، ذلك أن المدنية الحديثة بما استتبعها من تغير فى مظاهر الحياة الاجتماعية ومن تعديل فى قيم الاخلاق ، كانت نتيجة لثورات داخلية شبت فيه ، وآمال وآلام جاشت فى صدره وتجارب جربها وأخطأ فيها فأصلح خطأه وهكذا كانت حركاته سلسلة متصلة تسلم حلقة منها الى حلقة ، ونسير فى التدرج فيها سيرا طبيعيا ، أما فى الشرق فجاءته هذه المدنية لامن داخل نفسه بل من خارجها ، وفرق كبير بين مادعت اليه الطبيعة ومادعا اليه التقليد — ولاختلال هذا التوازن مظاهر كثيرة فان نظرت الى القضاء فقضاء شرعى فى الاحوال الشخصية يطبق نظم المدنية الاسلامية وقضاء اهلى يطبق نظم أوربا بمصر وقضاء مختلط يخالفهما ، وفى الحياة الاجتماعية نرى قرى لم يتأثر أهلها بالمدنية الحديثة فى قليل من شؤونهم ولا كثير ، ومدنا تاثرت الى حد كبير بها حتى فى أدق أمورها ، ولعل خير ما يمثل مظاهرنا المختلفة المضطربة اختلاف ملابسنا وتعدد أشكالها مما لا يعرف له نظير فى أوربا .

وفى التعليم انواع تتبع الانماط الاسلامية فى عصورها ، وأنماط تتبع المدنية الحديثة فى مظاهرها وأشكالها ، وهكذا فأنت أنت نظرت إلى أية أمة اوربية فى كل مظاهر الحياة من لغة وتعليم وملبس ومظهر اجتماعى رأيت فيها وحدة رغم الاختلافات السطحية ، وان أنت نظرت الى حياة المسلمين فى كل مرفق من هذه المرافق لم تجد هذه الوحدة ووجدت الخلاف فى الصميم ، نرى نزعات تتجه نحو تاريخهم ودينهم ومدنيتهم القديمة ونزعات تتجه نحو المدنية الحديثة ولا رابطة تربط هذه النزعات - ونرى ناحية من نواحى المدنية الحديثة تطغى وتكثر ولا يماثلها ما يقابلها فيطغى - مثلا - فى الشرق لهو أوربا من خمر ورقص وحياة مترفة وهى كثيرة فى أوربا كثرة تفوق بمراحل ما فى الشرق ، ولكنها فى اوربا تتعادل وتتوازن ، فلهو كثير يزنه جد كثير ، واجرام يوازنه حزم ، وليس كذلك فى الشرق فلهو لا يعدله جد واجرام لا يوازنه حزم - وعلى هذا النمط يختل التوازن وتفقد الأمة قوتها الحيوية - ولا يمكن أن تصلح هذه الحال إلا اذا توافر جماعة من خير الامة على دراسة الموقف الاجتماعى للمسلمين والشرق دراسة عميقة مسلحة بما وصل اليه علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ ، ثم يضعون بعد هذه الدراسة الاكاديمية خططا للسير فى هذا الظرف العصيب ظرف الانتقال ، يعرفون الداء ويصفون الدواء ، يعلمون مدنيتهم القديمة والمدنية الحديثة ، ومعايب كل ، ومزايا كل ، ويعلمون الحالة النفسية لأممهم وما يناسبهم وما لا يناسبهم ويبينون ، خطة الانتخاب ، يعرفون مناحى اختلال التوازن وأسبابها ويرسمون طريقة ، إعادة التوازن .

والأمر الثانى من نتائج انتشار المدنية الحديثة بين المسلمين أمر يناقض الأول ريكاد يسير سيراً عكسيا معه ، ذلك أن انتشار التعاليم الجديدة للمدنية الحديثة واضطرار الاوربيين لتأليف فرقة من المسلمين يتكلمون لغتهم ، ويتعلمون مناهجهم ، ويتشربون مبادئهم ، أمكنت هذه الطائفة من الاطلاع على المبادى التى تدعو الى الديموقراطية ، وتبث روح الوطنية ، فكان من ذلك أن أشربوا روح الثورة — نظروا الى أممهم بالعين التى نظرت الى هذه المبادى ، فأيقنوا بحقهم فى الحياة ، وحقهم فى الاستقلال ، وحقهم أن يساهموا فى بناء صرح المدنية ، وأن يشاركوا فى تحمل اعباء الانسانية — وزادهم عقيدة فى ذلك ما رأوا من أن أوربا تحكم آسيا وأفريقيا على قاعدة مختصرة موجزة واضحة طبيعية ، وهى أنها تتجه فى تسيير آلات الحكم الى منفعتها هى ، فحيث اتفقت مصلحة آسيا وأفريقيا مع أوربا نفذت المصلحة المشتركة ، وحيث اختلفت مصلحة آسيا وأفريقيا مع مصلحة أوربا ، فطبيعى أن تنفذ مصلحة أوربا ، وقد ينظر فى تقدير المصلحة النظر الضيق القريب لا النظر الواسع البعيد - كان من جراء هذا وذاك وجود الاصطدام وشعور الشرق بالغبن ، وقيام الطائفة المتعلمة على النمط الحديث ببث روح الوطنية — وعملت هذه الحركة فى النفوس سنين وتكفل الزمن بأن يظهر كل حين وآخر حادثة تفتح عيونهم وتقوى شعورهم ، فكان القلق فى كل مكان فى الشرق ، فى مصر ، فى تونس ، فى الجزائر ، فى مراكش ، فى فلسطين ، فى الشام ، فى العراق ، فى الهند ، فى غيرها من البلدان ، قلق اقتصادى وقلق وطنى وقلق دينى ، هذا القلق أنتج ولداً جديداً هو ما وصفته قبل ، ماذا ينتهى اليه هذا القلق ؟ ماذا يكون شأن هذا الوليد ؟ ماتاريخه المستقبل ؟ هذه الاسئلة وأمثالها خارجة عن عنوان مقالنا وهى بعنوان ، المسلمون غدا ، الصق واليق ، وكل ما أعلمه الآن وأريد أن أقوله عن هذا الطفل أنه ، لن يموت » .

احمد امين